مجلة المجمع العلمي

إشكالية الأصالة والمعاصرة عند محمد عابد الجابري

وليـــد خالد احمد حسن

الملخص :

يتناول البحث اشكالية الأصالة والمعاصرة عند المفكـــر العربـــي محمد عابد الجابري ، الذي تبنى نموذج السلف الصالح في التجربة العربية الراهنة مع الحضارة المعاصرة . ويعالج هذه الاشـــكالية بنظـــرة نقديـــة علمية موضوعية .

الباحث في بحثه هذا الموضوع ، رفض تحليـــل الجـــابري لهـــذه الاشكالية ، لان الجابري ادعى ، انها اشكالية نظرية بحته مستقلة كليا عن الصراعات الاجتماعية والتاريخية ، ولانه اعترف بالأساس الموضـــوعي لهذه الاشكالية ... الا انه اكد وجود الآخر المختلف مترسبا بثقافتـــه فـــي العقل العربي .

المقدمـــة :

ليـــس بدعا ولا مصادفة ان يكون اروع وجه من وجوه اعجـــاز الاسلام ــ ثورة العرب الانسانية الكبرى ــ انه الصورة الرائعة لحركـــة الخلق الالهي الدائمة ، وان الكلمة الالهية الخلاقة فيه هي تذكرة ابناء الحياة بالحركية الكونية وبحركية خلق الانسان وبحركية المجتمع ، فالأمة الحيـــة المتجددة هي التي تحيا حاضرها ، والتي ينفسح امامهـــا مجـــال الحيـــاة للمستقبل ، وهي الامة التي تغني ماضيها باستخدامها إياه لا باستلامها له .

والامة الحية تنمو وتتكامل ويكون ماضيها ماثلا في حاضرها ويكون مستقبلها امامها لا وراءها .

لذلك ، فان فهمنا لتراثنا ، تاريخا وحضارة ودينا ورسالة ، يجب ان يكون فهما خاصا متميزا ، لانه قُدم إلينا بشكل مشوه ، ممسوخ . اذ ابرزت منه الجوانب السلبية واقيمت فيه خصومات مفتعلة ومناهضة للتقدم العلمي والاجتماعي ، كما صدرت بحقه وتصدر احكام جائرة مغرضة من قبل فئات وجماعات تبحث لنفسها عن مبررات للوجود ، فضلا عما اصابه على يد الشعوبية الحاقدة ، فضلا عن تأثير قرون التخلف المديدة وطوفان الحضارة الغربية الكاسحة ومزالقها الخطيرة التي شوهت انسانية الانسان وافقدته توازن شخصيته بانماء جانبه المادي على حساب جوانبه الروحية والاخلاقية والنفسية .

وكان حصاد ذلك ، هذا الصراع الفكري الذي يمزق شخصية الانسان العربي ، ويصيبها بالفصام والقلق والاغتراب النفسي نتيجة هذه الثنائية الغربية المصطنعة بين المثال والواقع ، وبين حياة الانسان الروحية وحياته المادية ، الأمر الذي يحملنا على القول ، ان الكثير من العرب هم حاليا في واقع الأمر ، الصورة الجامدة السطحية القشرية للحضارة العربية / الاسلامية التي يحيونها من الخارج لا من الداخل ، كما انهم الصورة الباهتة الشوهاء للحضارة الغربية الحديثة التي يستهلكون قشورها دون جوهرها . انهم حيارى ، مبتورو الجذور ، فلا هم مع جوهر

التراث ولا هم مع روح العصر ، ليسوا بقادرين على استشراف آفاق المستقبل .

ولكي يتخلصوا من حالة الجمود والضياع والشلل والحصار هذه ، لابد لهم من عملية انقاذ وبعث حضاري يبتدئونها باكتشاف انفسهم اكتشافا واعيا يتشبعوا بروح العصر العلمية ، وهي الروح الموروثة في الأصل عن تراثنا العلمي الحضاري .

وتلك هي في رأينا نقطة البداية المحتومة وحلقة الوصل الذهبية التي يمكن ان تربط ربطا جدليا حيا بين الماضي والحاضر ، بين التراث والعصرنة ، وبها يمكن ان تكون رؤانا المستقبلية بعيدة المدى ، راسخة الخطى ، علمية التخطيط . فاذا ما تحققت هذه الخطوة الاولى الهامة ، ادركنا ان الجانب المشرق المتمثل بمنهج البحث العلمي التجريبي من حضارة الغرب المتطورة ، هو ، بضاعتنا ردت الينا ، وادركنا كذلك ان ثقتنا بأنفسنا وبتراثنا قد عادت الينا ، فيدفعنا كل هذا الى العودة الواعية لمواجهة تراثنا ، ندرسه ونغنيه ونستلهم منه افضل ما فيه من قيم ومبادىء ومناهج وتشريعات تساعدنا في بناء حياتنا ونزوعنا الانساني ، واستعدادنا الدائم لحمل رسالة العروبة من جديد الى العالم .

وفي اعتقادنا ، انه لا سبيل الى تفادي مخاطر التقدم المادي على حياة الانسان وعقله وحضارته الا بالاقتداء بالنموذج الانساني المتكامل الذي عاشه العرب في العصر الذهبي للاسلام ، يوم آمن الانسان العربي

مخلصا صادقا أمينا ومجاهدا لنصرة الحق والحقيقة . كل ذلك من خلال رؤية جديدة توحيدية تكاملية جدلية اقامت التعادل والتوازن في علاقة الانسان بأخيه الانسان .

كان الاسلام دينا وحضارة ورسالة ، هو النفحة الروحية واليقظة الوجدانية والوعي المسؤول القادر على تحريك كوامن النفس الانسانية . ان مثل هذا المنهج العلمي وهذه الرؤية التوحيدية التكاملية الشاملة هو ما يحتاجه العرب اليوم لبعثهم الحضاري الانساني .

ما احوجنا اليوم ان نرجع الى تراثنا العربي بمنظور علمي جدلي ثوري ، يمكننا من تحديد الموقف الصحيح من هذا التراث بعد ان تعددت المواقف الخاطئة منه ما بين رفض مطلق وقبول كلي . فنحن اذ ندعو للعودة الى استلهام ما هو جديد وخالد في تراثنا ، لا يعني اننا نريد ان ننسخه بل اننا نريد استلهامه بعقل واع مستنير ، عقل مجرب وبصير يرى جدلية الحياة وحركة الصيرورة المتدفقة عبر الماضي والحاضر والمستقبل ، لأن الامة الحية المتجددة ابدا مع الحياة والتطور والتقدم ، هي التي لا تتحيز في زمان ومكان معينين ، ولا ينفصل فيها الماضي عن الحاضر ولا الحاضر عن المستقبل ، بل تحيا استمرارية وجودها الفعلي بنوعية دائمة بحرية العقل وتجددية الحياة ، وابداعية الانسان .

فالماضي يشكل قيمة هامة في حياة الانسان ، فهو المحرك الاساسي الذي يدفعه الى الحاضر ويأخذ بيده الى المستقبل ، لذلك ، تشكل

العلاقة بين الماضي والمستقبل قضية هامة على الرغم من قدم طرحها ، حيث احتلت حيزا بارزا ومتقدما في مواجهة الاهتمامات والقضايا المحورية التي تتركز عليها وتدور حولها احاديث المثقفين العرب وكتاباتهم ، حيث يتواصل البحث فيها والحوار حولها تحت عناوين متنوعة ، كالأصالة والمعاصرة ، والقدم والحداثة ، والتقليد والتجديد ، والتراث والعصرنة ... وما شابه ذلك من عناوين هي بمثابة تقاسيم على وتر واحد .

ومع ان هذه المسألة قد طرحت منذ عقود ، وكثر فيها الجدل والنقاش ، الامر الذي افقدها مقدارا من ألقها وجدتها وربما جديتها ايضا . فأننا نجدها بين حين وآخر تقفز من جديد الى موقعها البارز والمتقدم في مجالس الادب ومنابر الفكر العربيين ، فتتصدر محاور الاهتمام الفكرية في الساحات العربية مشرقا ومغربا .

ولقد بات واضحا ، ان المناقشات التي جرت بشأن هذه القضية قد اسفرت عن تبلور ثلاثة مواقف اساسية تجاه الماضي تتراوح بين التعصب له والتعصب عليه مرورا بالنظرة الموضوعية او القريبة من الموضوعية ، وهي النظرة التي لا تضفي على الماضي طابع التقديس والتزكية المطلقة ، لكنها في الوقت نفسه لا ترشقه بسهام الرفض والاستعلاء وانما هي تدعو الى دراسته وتقويمه للكشف عما فيه من جوانب الايجاب والسلب ومعرفة ثوابته وتحولاته .

امـــا العبء الواقع علينا في التعامل مع هذه المواقف ينحصر في ضرورة الوعي بخصائصها وبأبعاد الصراع العقائدي بينها ، لأن علاقتنا بها ستتحول الى علاقة تصديق غيبي اذا تخلينا عن وعينـــا النقـــدي فـــي التعامل معها . وهذا الامر سيتطلب منا مستوى متقدما من الوعي يحمـــل في مضمونة اسئلة تتمحور حـــول الاشكاليات التي يـــضج بهـــا واقعنـــا العربي . وضمن هذا السياق العربي ستتجنب التسليم بكل ما جـــاء بهـــا ، وسنجعل بالتالي وعينا جدليا قائما على الحوار والفعل كي لا نكون ضحية من ضحايا الافكار المرسومة التي تغلف بعضها .

لـــقد اعتبرت هذه القضية الاشكالية من بين القضايا المحورية التي شغلت وما زالت تشغل الفكر العربي الحديث . وقد بدأت المشكلة تتفـــتح ملامحها بعد احتكاك المجتمع العربي بالغرب ، في لحظة تاريخية كان فيها التخلف هو السمة الغالبة في ارجاء الوطن العربي نتيجة ظروف تاريخية معروفة ، في حين كان الغـــرب في اوج قوتـــه الاقتـــصادية والـــسياسية والعسكرية والتقنية ، لذلك طرحت اسئلة محورية : لماذا التخلف ؟ وكيف يمكن لنا ان نأخذ بأسباب التقدم ؟ وما هو سر التقدم الغربي ؟ او بتعبيـــر آخر : ما هي الوسائل التي تكفل للعرب عبور الفجوة بين التخلف والتقدم ؟ وهل يمكن ذلك باحتذاء النموذج الغربي في السياسة والاقتـــصاد والثقافـــة وغيرها احتذاءً كاملا ، ام يكون باحياء التراث العربي باعتبـــاره يـــصلح نموذجا حضاريا للتنمية والتحديث ، ام ان الحل يكمن في محاولة التوفيـــق بين النموذج الغربي والتراث ؟

كـــل هذه التساؤلات تمثل جوهر مشكلة ما عـــرف فـــي ادبياتنـــا الفكرية بالأصالة والمعاصرة والتراث والعصرنة .. التي لا يزال الكثيـــر منها بحاجة الى اجابات محددة وواضحة فالتعامل مع التـــراث والموقـــف منه ، طبيعة الاستدعاء واعادة استجوابه ، وكيفية قراءاته والانطلاق بـــه الى المستقبل ، بحيث لا يصبح المستقبل هو التـــراث او المـــستقبل هـــو الماضي . هذه القضية بالذات شغلت جُل كتابات الـــدكتور محمـــد عابـــد الجابري ، الذي نحن بصدد مناقشة بعض اطروحاتهـــا ..

والجـــابري ، احد ابرز المفكرين العرب المبدعين الذين حـــاولوا الفهم المتعمق والابـــداع والاستنارة ، مستعينا بحصيلته الفلسفية الـــوفيرة وادوات منهجيته التي طاوعته بسلاسة في النظر الـــى التـــراث العربـــي الاسلامي واعادة استجوابه من خلال الفرز والغربلة والانطلاق بـــه الـــى مشروع ثوري عربي للتقدم .

والجـــابري ، مثقف عربي عاش ثقافة الغرب واستوعبها وقـــارن بينها وأدخل فيها التفاعل مع ثقافتنا العربية الاسلامية ، وهو مثقف عضوي مندمج في مجتمعه وصاحب مجموعة من المؤلفات المثيرة للجدل .

والجـــابري ، فهم التطورات العالمية الحديثة المعاصـــرة ، لـــذلك يرى ان الحضارة المعاصرة التي نحياها اليوم والتي تفرض نفسها علينـــا وعلى غيرنا بالفكر والتقنية كحضارة للعصر الراهن كله ، هي شيء آخر جديد تماما يقع خارج الحضارة العربية الاسلامية التي اصيبت بالتراجع ، وفي ذات الوقت ينافسها ويهددها من خارجها ، وفي عقر دارها .

ومـــن هنا ، لا يكفي الجابري استلهام نموذج (السلف الصالح) في التجربة الراهنة في الامة العـــربية مع الحـضارة المعاصـــرة . فهـذا النموذج انما كان نموذجا كافيا لنا اليوم ، كان التاريخ هو تاريخنا ، يـوم كان العالم يقع في عقر دارنا .

مـــن هنا ، وقد اصبحنا جزءً من كل ، فأن الطريق الوحيد لأثبات وجودنا والحفاظ على خصوصيتنا داخل هذا الكل ، هو طريق التعامل معه بالمنطق الذي يؤثر فيه منطقه هو ، ولكن من مواقعنا لا من مواقع غيرنا .

ويـــحدد المنطق هذا بأنه منطق الحضارة المعاصرة الذي يتحـدد في مبدأين : هما العقلانية والنظرة النقدية العقلانية في الاقتصاد والسياسة والعلاقات الاجتماعية والنظرة النقدية لكل شيء فـــي الحيـــاة والمجتمـــع والتاريخ والفكر .. هذا في حين ان منطق سيرة السلف الصالح التي تمثل (المدينة الفاضلة) ، في التجربة التاريخية العربية الاسلامية ، كـــان شـــيئا آخر ، كان منطقا يقوم على المبدأ الآتي : الدنيا مجرد قُنطرة الى الآخرة ، وقد ادى هذا المنطق وظيفته يوم كان العصر عصر ايمان فقـــط ولـــيس عصر علم وتقنية وعقائد [1] .

المـــعروف عن الجابري ، اتباعه لطريقة الترتيب منهجا حيث يبدأ بطرح المقدمات على هيئة قضايا اشكالية ، ويعالج بنظرة نقديـــة مبدعـــة المعالجات والطروحات الفكرية حول القضية المثارة موضع البحث ، ثـــم

---

[1] محمد عابد الجابري – السلفية ام التجربة التاريخية للامة ، مجلـــة اليـــوم الـــسابع (باريس) ، العدد ٣٥ (٧ / يناير / ١٩٨٥) .

ينطلق الى تحديد رؤيته الخاصة ، وهو قد طبق تلك الاداة المنهجية في تعامله مع التراث العربي الاسلامي ، كما انه يميل الى تناول قضية التراث وتحديات العصر في صياغة تجعل منه اشكالية على نحو ما سنوضح في دراستنا هذه .

لماذا الحديث متفجرا عن التراث والاحياء الاسلامي ، وهذه الضجة التي شغلت اهتمام معظم مثقفينا العرب ؟

احد اهم الاسباب يحدده الجابري في ان الظروف العربية الراهنة تعاني نوعا من الاحباط والفراغ ، وعندما يعاني الانسان الاحباط او الفراغ ، فانه يلتفت الى الوراء ليحاول ان يستند الى ما يحفظه او يمنعه من السقوط ((فنحن نذكر في عقد الستينيات مثلا عندما كان الوعي العربي الى الامام والمستقبل والقضايا التي تواجهه ، كان واقع التراث بالنسبة لنا وقعا خفيفا . كانت المشكلة مطروحة بالطبع لكن بالشكل الذي هي عليه اليوم)) .

فأذا كان التراث بالنسبة الى الاوروبي ينصرف في الغالب الى ما يوجد في المتحف الى الفلكور والنقوش والعادات ، ولا يخطر بذهنه احيانا الجانب الفكري ، وان خطر فبصورة خفيفة جدا ، أي ليس لديه تمزق في الوعي . اما التراث بالنسبة لنا فهو شيء آخر حيث يحيلنا الى ظاهرة ربما تتعلق بالوعي اكثر من الواقع ، ربما تعبر عن نوع من شقاء الوعي ، نوع من الشعور بالفراغ او بالهوة بين الصورة التي لدينا عن

الماضي او عن فكرنا الماضي ، وهي صورة جامدة على كل حال ، ونُسقِّط عليها ما نريد ان تكون وبين واقعنا ومستقبلنا [٢] .

ولكن ، لماذا تهتم فئة محددة من المثقفين العرب بالموروث في موقفه من الوافد ؟

يرى الجابري ، ان الذي يعاني من اشكالية الأصالة والمعاصرة هم المثقفون مزدوجو الثقافة ، اما المثقف الذي درس الثقافة القديمة وحدها فهو لا يعاني من اشكالية ما ، والمثقف الذي درس ثقافة الغرب وبقي في اطارها لا يعاني من أي اشكالية ، الذي يعاني من الاشكالية هو مزدوج الثقافة ، أي الذي يعيش التغاير بين الماضي والحاضر .

الحديث عن الماضي والحاضر والمستقبل او العلاقة بين الأصالة والمعاصرة والابداع او الابداع والاتباع ، يجري في اطارات عربية واسلامية واقليمية ودولية ووسط تحديات عصرية رهيبة . فهل يبقى تناول هذا الحديث ضمن حدود الماضي والتراث والتاريخ فقط كما يفعل السلفيون التقليديون ام ان هناك مستويات اخرى للتحليل ؟

الحضارة الغربية المعاصرة عند الجابري تبنى مستقبلها من تراثها ولا تحتاج الى تراث الآخر المختلف لكي تبنى مستقبلها وذاتها / كينونتها وهو وليد حاضرها . اما في حالتنا نحن العرب فأن الحاضر الذي نعيشه ليس هو حاضرنا نحن بل حاضر الغرب ويمثل امتداد الغرب فينا

---

[٢] حوار مع محمد عابد الجابري ضمن ملف : التراث والمستقبل العربي – اتجاهات ورؤى ، مجلة الشراع (لبنان) ، العدد ١٤٦ (٣١ / ديسمبر / ١٩٨٤) .

ومن ثم فليس بالامكان بناء مستقبلنا من تراثنا بمفرده ، كان هذا ممكنا في الماضي عندما كنا نمثل ثقافة العالم في عصرها ولم يكن هناك غـرب او حضارة تقدمتنا بأشواط ، فعندما تكون الحضارة هي العـصر يمكننـا ان نقول انها تبني مستقبلها من تراثها .

ومـن هنا ، فأن أي مستقبل سيكون لنا بالضرورة مستقبلا يجمع الطرفين معا . فالذين تحدثوا بصفة المطلق عن العلاقـة مـع الغـرب والموقف من الموروث وتحديات العصر العلميـة واسـتراتيجيات التقـدم العربي وعقائد هذا التقدم في مواجهة التبعية والتخلف والاستبداد ، وضعوا الأصالة في وضعية مقابلة مضادة للمعاصرة ، وكان كلا من الاثنتين ذات بنية معزولة ، فواقع التطور والتغيير في المجتمعات العربية شهد بالفعـل (استزراع) او ما يشبه فرض الوافد الغربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيـا وفكريا بطريقة هيكلية / بنيوية في نسيجنا المجتمعي واصـبحنا نعاصـر تجاور مجموعة بنيات (بنيويات) تقليدية بجوار العصرية ، والحديثة بجانب القديمة ، تجاور لم تنتج عنه تمازج كامل او تفاعل جدلي متخلق بل عاشت البنيات (البنيويات) والهياكل ، لا تلغي ولا تستطيع احداها ان تحل محـل الاخرى في مجالات التعليم والـسياسة والفكـر والاقتـصاد والانـساق الاخرى .. فمن يتناول او يرغب في معالجة التجربة التاريخيـة العربيـة الاسلامية بواقع الامة العربية الممتد في علاقته بتحديات الحاضر عليه ان يراعي بدقة منهجية وتفكيرية هذه الازدواجية [٣] .

---

[٣] محمد عابد الجابري – اشكالية الاصالة والمعاصرة في الفكـر العربـي الحـديث والمعاصر ، صراع طبقي ام مشكل ثقافي ؟ ضمن اعمال ندوة التراث وتحديات =

*** جـدل التيارات الفكرية في قراءة الجابري :**

التيارات الفكرية الثلاثة الكبرى في فكرنا العربي الحديث والمعاصر ، هي الاسلامية بفروعها ومنازعها المختلفة ، والليبرالية بنوعياتها ، والماركسية باتجاهاتها المتعددة .

يرى الجابري انها قرأت التراث قراءة (سلفية) مع اختلاف (السلف) الذي تستند اليه . ولا ندري لماذا استبعد التيار القومي والوحدوي . فعلى الرغم من انه يتناول في كتابه (نحن والتراث) هذه التيارات الثلاثة ويغفل التيار القومي الوحدوي باتجاهاته الرومانسية والتقدمية والاشتراكية ، بجانب ما يمثله التيار الناصري من اجتهادات سياسية في اغلبها وفكرية نظرية في اقلها .

ويعود الجابري في دراسته (اشكالية الاصالة والمعاصرة ...) الى استبعاد التيار الماركسي والليبرالي من تناول قضية التراث ، فهما يستندان عنده الى (سلف جاهز) ولا يشكل التراث بالنسبة لهما قضية اشكالية ، كما يستبعد التيار الوحدوي لأن الوحدة العربية برأيه قضية سياسية محسومة ، فكل المواطنين العرب في أي استفتاء عن ضرورة الوحدة العربية سوف يجيبون بـ (نعم) ، أي ان قضية الوحدة ليست بأشكالية ثقافية ويقتضي هذا المنطق اما تناول هذه التيارات مجتمعة في معالجتها للتراث والموقف من الوافد او استبعادها مجتمعة ايضا . ثلاثة اسئلة كبرى ومحورية تثيرها التيارات الثلاثة . التيار السلفي التقليدي

= العصر في الوطن العربي (الاصالة والمعاصرة) ، التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في القاهرة ، ايلول / ١٩٨٤ ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٥ .

الجامد يطرح السؤال : كيف نستعيد مجد حضارتنا ؟ كيف نحيي تراثنا في محاولة التعامل مع التحدي الحضاري الغربي بجميع اشكاله وكافة ابعاده . هذا التيار السلفي اتخذ عملية تأكيد الذات بشكل نكوص الى مواقع خلفية للاحتماء بها والدفاع انطلاقا منها .

قراءة هذا التيار السلفي للتراث هي قراءة عقائدية سافرة تخلط بين الذات والموضوع وتدمج المعرفي بالعقائدي . ومع بداياته المتفتحة لَبسَ لباس حركة دينية وسياسية على يد جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، ودعا متجاوزا موقف محمد بن عبد الوهاب الى الغاء كل التراث المعرفي والمنهجي والمفهومي المنحدر الينا من عصور الانحطاط .

والتجديد ، بمعنى بناء فهم جديد للدين عقيدة وشريعة انطلاقا من الأصول مباشرة والعمل على جعله معاصرا لنا واساسا لنهضتنا وانطلاقتنا على ان هذا الفهم تراجع من تأكيد الذات كوسيلة للانطلاق الى كونه اصبح غاية بحيث صار الماضي هو نفسه (مشروع النهضة) ، ولكن ليس الماضي كما كان بل الماضي اللاتاريخي (الماضي كما كان ينبغي ان يكون) واضحى " المستقبل الآتي " راح يفتش في الماضي وصراعاته العقائدية ليعيشها ويقيس عليها قضايا تمني او حلم . ان القضايا المعاصرة كانت هي ذات قضايا الماضي الصراعية ، مشوها في ذلك طريقة منهجية اسلامية اصيلة هي " قياس الغائب على الشاهد " .

انطلقت السلفية الدينية في قراءتها للتراث من منظور ديني للتاريخ يجعله ممتدا في الحاضر منبسطا في الوجدان ، وهكذا جعلت

العامل الروحي هو العامل الوحيد المحرك للتاريخ والعوامل الاخرى ثانوية ومهمشة وتابعة .

إمـــا التيار الليبرالي العربي ، فقد طرح لنفسه سؤالا هو : كيـــف نعيش عصرنا ؟ كيف نتعامل مع تراثنـــا ؟ وقرأ التراث العربي الاسلامي بصيغة العلاقة بين (الحاضر) و (الماضي) قرأة (اورباوية) النزعـــة ، أي من منظومة مرجعية اوروبية ، لذلك لم ير فيه الا ما يراه الاوروبي .

التـــيار الليبرالي العربي قرأ تراثا بتـــراث ورأى فـــي الفلـــسفة الاسلامية قرآءة للفلسفة اليونانية بلا منهج . فصل الرؤيـــة عـــن المـــنهج واصبح (المستقبـــل) في الآتي العربـــي مـــشروطا باســـتيعاب الحاضـــر (الماضي) الاوروبي . هكذا قام باستلاب للذات خطير .

إما التيار الماركسي العربي فقد وضع لنفسه سؤالا : كيف نحقـــق ثورتنا ؟ كيـــف نعيد بناء تراثنا ؟ الحوار عنـــده حـــوار بـــين المـــستقبل والماضي ولكن بوصفهما مجرد مشروعين : مشروع الثورة التي لم تتحقق بعد ومشروع التراث الذي سيعاد بناؤه بالشكل الذي يجعله يقوم بدوره في دفع الثورة وتأصيلها ، هذا الفكر الماركسي تائه في حلقة مفرغة في علاقة التراث بالثورة على الرغم من منهجه الجدلي ، انه لا يتبنى هذا المـــنهج كمنهج لـــ " التطبيق" بل يتبناه كـــ " منهج مطبق " . وهكـــذا ، فـــالتراث العربي الاسلامي يجب ان يكون انعكاسا للصراع الطبقي من جهة وميدانا للصراع بين المادية والمثالية من جهة اخرى ، فأذا لـــم يـــستطع تـــذرع بالتاريخ العربي غير المكتوب واذا أصر على اقتحام الصعاب فهل الواقع التاريخي على القوالب النظريـــة ، وهكذا تنتهي القراءة اليسارية العـــربية

للتراث العربي الاسلامي الى " سلفيـــة ماركسية " ، أي محل التطبيـــق " السلف الماركسي " للمنهج الجدلي من اجل البرهنة على صـــحة المـــنهج المطبق لا تطبيق المنهج .

جمـــيع هذه القراءات سلفية لانها طبقت طريقة قيـــاس الغائـــب " المستقبـــل" على الشاهد بشكل مشوه ومضلل وتجاهلت اهم شروط صـــحة هذا القياس كما وضعها علماء النحو والفقه العرب .

ـــ لا يجـــوز قياس الغائب على الشاهد الا اذا كان من طبيعة واحدة .

ـــ لا يجـــوز قياس الغائب على الشاهد الا اذا كانا يشتركان .

ـــ داخـــل طبيعتهما الواحدة في شيء واحد بعينه يعتبر بالنسبة لكل منهما احد المقومات الاساسية .

وهـــكذا كان من نتائج القياس الخاطىء شيوع آليه ذهنيـــة ألغـــت الزمان والتطور . فـــالحاضر يقاس على الماضي وكأن الماضي والحاضر والمستقبل عبارة عن بساط ممتد لا يتحرك ولا يتموج ، كذلك احد نتائجها المدمرة عدم فصل الموضوع عن الذات لا بمعنـــى الحياديـــة المـــشوهة والمضللة وانما بمعنى فهم التراث في الـــسياق التـــاريخي واستحـــضاره واكتشاف ما قاله المفكر وما كان يود ان يقوله ولكنه امتنـــع عـــن ذلـــك لاسباب عدة كما يرى الجابري على الرغم من وجاهة هذا المنطق فانه لم يجتهد فيه بوضوح كافٍ الذي يضع حدودا واضحة تمكننا من رؤية محددة ممنهجة لتراثنا دون ان ننسى توجهاتنـــا وانحيازاتنـــا علـــى الا نـــسقطها بميكانيكية او تدخل احساساتنا وجوانب الكراهية والاستحسان .

* القطـــيعة المعرفية مع التراث :

يستفيد الجابري من مفردات المنهج الظاهراتي ومقولـــة القطيعـــة المصرفية التي قال بها باشلار وميشيل فوكو ، فالتعامل مع التراث يقتضي ليس استعمال مناهج جاهزة وانما نقد العقل ، فتجديد الفكـــر العربـــي او تحديث العقل العربي يستدعي اول ما يستدعي كسر بنية العقـــل المنحـــدر ألينا من " عصر الانحطاط " الذي بدأ مع تآكل الدولـــة العباســـية الثانيـــة والدولة العثمانيـــة . ان هذا يقتضي احداث قطيعـــة معرفيـــة تامـــة مـــع بنية العقل العربي في عصر الانحطاط وامتداداتها الـــى الفكـــر العربـــي الحديث والمعاصر .

يـــقصد الجابري من احداث القطيعة المعرفيـــة ، ليـــس تغييـــر موضوع المعرفة وحقلها أي القطيعة مع التراث ذاته والغائه ، فهذه مقولة فاسدة لديه ، انما تغير طريقة المعالجة والادوات العقلية التي تعتمدها هذه المعالجة وتحديد الاشكالية التي تواجهها والحقل المعرفي الذي تتم داخله ، لا يدعو اذن الى القطيعة مع التراث وانما ينادي بـــالتخلي عـــن " الفهـــم التراثي للتراث " القطيعة مع نوع العلاقة مع التـــراث ، القطيعـــة التـــي تحولنا من " كائنات تراثية الى كائنات لها تراث " أي الى شخصيات يشكل التراث احد مقوماتها ، المقوم الجامع بينها في شخصية اعم هي شخـــصية الامة صاحبة التراث[٤].

---

[٤] المشـــروع الحضاري العربي بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات ، ندوة المجتمـــع العربي الى اين ؟ مجلة الوحدة (الرباط) ، المجلس القومي للثقافة العربية ، العدد ٦ (مارس /١٩٨٥) .

انـــه يقترح فصل الموضوع عن الذات والذات عن الموضـــوع ، لأن القارىء العربي عندما يقرأ نصا من نصوص تراثه يقـرأه متـذكرا لا مكتشفا ولا مستفهما ، وهو عند القراءة يسابق الكلمات بحثا عن المعنى الذي يستجيب لحاجته المعاصرة . يقرأ شيئا ويهمل شيئا، فيمـزق وحـدة النص ويحرف دلالته ويخرج به عن مجاله المعرفي والتاريخي ، ومن هنا يجب تجنب قراءة المعنى قبل قراءة الالفاظ ، يجب التحرر من الفهم الذي تؤسسه المسبقات التراثية او الرغبات الحاضرة واستخلاص معنى الـنص من ذاته النص نفسه ، أي من خلال العلاقات القائمة بـين اجزائـه . ان تحرير الذات من هيمنة النص التراثي عند الجابري ، اخـضـاع الـنص التراثي لعملية تشريحية دقيقة وعميقة تحوله بالفعل الى موضوع للذات الى مادة للقراءة[٥].

هـكذا يلخص الجابري رؤيته في ثلاث عمليـات :

١- المعالجة البنيويـة ـ أي معالجة فكر صاحب النص التراثـي ككـل ومحورة فكره حول اشكالية واضحة قادرة علـى اسـتيعاب جميـع التحولات التي يجريها ويتحرك بها ومن خلالها فكره ، بحيث تجد كل فكرة من افكاره مكانها الطبيعي داخل الكل .

٢- التحليل التاريخـي ـ بمعنى ربط فكر صاحب الـنص الـذي اعيـد تنظيمه بمجاله التاريخي بكل ابعاده الفكريـة والاجتماعيـة . هـذا

---

[٥] محمد عابـد الجابري ـ نحن والتراث ، قراءات معاصرة في تراثنـا الفلـسفي ، ط١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٦ .

يجعلنا نتبين ما يمكن ان يتضمنه النص ومـــا لا يمكـــن ان يتـــضمنه ونعرف ما كان في امكانه ان يقوله ولكن سكت عنه .

٣- الطرح العقائدي ـــ فالكشف عن الوظيفة العقائديـــة " الاجتماعيـــة ، السياسية " التي اداها الفـــكر ، او كان يطمح او يراد منه ان يؤديهـــا داخل الحقل المعرفي العام هو الوسيلة الوحيدة لجعله فعلا معاصـــرا لنفسه مرتبطا بعالمه .

الطـــابع السلفي العام لأغلب التيارات الفكريـــة جعـــل الجـــابري يقول " الفكر العربي الحديث والمعاصر " ويلحق دائما كلمة الـــ (فـــكر) لانه يتعامل مع اشكالية واحدة قد تختلف داخلها الموضـــوعات والـــرؤى والمعالجات ولكن ليس من الممكن تحليل أي منها دون ربط الخيوط مـــع المشاكل الاخـــرى ، اشكالية النهضة التي واجهتها هذه التيارات ، اشكالية واحدة يتداخل فيها " الغزو الاوروبي ، الاستبداد التركي ، مشكل الفقـــر ، مشكل الامية ، مشكل التربية ، مشكل اللغة ، مشكل تخلف المرأة ، مشكل التجزئة القومية ... الخ " .

بـــهذا المعنى يؤكد الجابري ضرورة تناول العلاقة بـــين التـــراث والتحديات المعاصرة ، صياغته على هيئة اشكالية ، بمعنى تلك المنظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين مشاكل عديدة مترابطة لا تتوافر امكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل من الناحية النظرية الا في اطار عـــام يشملها جميعـــا . بعبارة اخرى ان الاشكالية هي النظرية التي لم تتـــوفر امكانية صياغتهـــا ، فهـــي تـــؤثر نـــزوع نحـــو النظريـــة أي نحـــو الاستقرار الفكري .

مـــن هنا يدعو الجابري الى دراسة التراث ضمن سياق معرفـــي يترك مساحة بينه وبيـــن المضمون العقائدي جدليا ، فـــالاشكالية اساســـا اشكالية معرفية ، بمعنى انها نتيجة تناقضات حقل معرفي معين وبالتـــالي فهي تظل قائمة ما دامت الشروط المادية والابستمولوجية التي تؤسس ذلك الحقل المعرفي قائمـــة . اما المضمون العقائدي الذي توظف فيـــه المـــادة المعرفية التي يقدمها نفس الحقل المعرفـــي لا يخضع للتناقضات المعرفية بل لتناقضات وصراعات اخرى ايديولوجية تجد اصلها ومنبعهـــا لا فـــي درجة تطور المعرفة وجهازها بل في المرحلة التي يجتازها المجتمع مـــن التطور ، وقـــد حاول الجابري تطبيق ذلك على الفلسفة العربية الاسلامية من خلال قراءات جديـــدة للفارابي وابـــن ســـينا وابـــن رشـــد ومقدمـــة ابن خلدون ...

*** عقائدية النماذج :**

يـــدرك الجابري في تحليله لاشكالية الأصـــالة والمعاصـــرة ، ان هـــذه المسألة ليست مسألة اختيار واع ارادوي ، وانمـــا هي مسألة واقـــع موضوعي مفروض فرضا على الامة العربية . لـــكن هذا التبصر المادي سرعان ما يتعـــكر صفوه بما يضج فيه الجابري من فيض مـــا اسميه انا بـــ (عقائدية النماذج) ، وهي صورة حديثة ، علموية من صور المثاليـــة الفلسفية . وتحمل هذه الايديولوجية نظـــرة مثالية الى البنـــى الاجتماعيـــة التاريخية ، حيث انها تعتبر هذه البنى نماذج ثقافية ، الامر الذي يوحي بأن عقلا كونيا او جماعيا هو المسؤول عن انتاج بنى الوجود الاجتماعي .

ان الجـابري لا يرى ان مشكلتنا مع الغـرب تتمثل في سـيرورة التطويع لبنى التشكيلات الاجتماعية العربية الذي يمارسه الغـرب من أجل الابقاء على علاقة الاستغلال والنهـب للـوطن العربـي وتعميـق هـذه العلاقـة ، وإنما تتمثل في زحف الأنموذج الحـضاري الغربـي علـى الأنموذج الحضاري العربـي . فصراعنا مع الغرب ، في نظر الجابري ، هـو صراع نماذج حضارية او عقول ثقافية . العقـل العربي في مجابهة العقل الأوربي .

وكـذلك الحال بالنسبة الى التراث العربي . فهو ينظر اليه بوصفه أنموذجا . فتراه يتحـدث عن النموذج التراثي الذي لا نختـاره وإنمـا نجره معنا جرا من الماضي ، كما يعبر عنها . فهو لا ينظر الى الموروث الحضاري على أنه نتاج سيرورة تاريخية من التغير في بنى موضـوعية مفتوحة ، وإنمـا ينظر إليه على انه جوهر مثالي (أنموذج) نجـره معنـا جرا الى حاضرنـا . لذلك ، فهو ينظر الى واقعنا الحاضر على انه خليط من أنموذجين حضاريين ، في بعض القطاعات يهيمن الأنموذج الأوربي ، وفـي بعضها الآخر نرى الأنموذج التراثي ما زال مهيمنا . وكما يعبـر عنها الجابـري قائلا : " والنتيجة مجتمعاتنا تعاني ازدواجية صميمية على مختلف المستويات العمرانيـة والاقتـصادية والاجتماعيـة والاداريـة والثقافية ، ازدواجية تتمثل في وجود قطاعين او نمطين من الحيـاة مـن الحياة الفكرية والمادية ، أحدهما عصري مستنسخ من النمـوذج الغربـي ومرتبط به ارتباط تبعيـة ، وثانيهما تقليدي أو اصيل .. هـو اسـتمرار

للنموذج التراثي .. نجد القطاعين معا منفصلين أو متوازنين أو متداخلين بعض التداخل ، يتنافسان ويتصادمان في حياتنا اليومية على صعيد وعينا ونمط تفكيرنا " .

انه اذن صراع بين أنموذجين يتصارعان على ارض الوطن العربي وليس صراعا بين قوى وطبقات وفئات اجتماعية . فهناك الأنموذج الأوربي الذي فرضه الأوربيون علينا فرضا في بعض القطاعات ، وهناك الأنموذج التراثي الذي جررناه معنا قسرا من الماضي التليد الى الحاضر الرديء . بهذه الكيفية يغيّب الجابري الجانب الجوهري في ذلك كله : علاقات الاستغلال الموضوعية التي تربط التشكيلات الاجتماعية العربية مع المراكز الامبريالية ربطا بنيويا ، وموقع كل من القطاعين التقليدي والعصري في منظومة هذه العلاقات . فهناك بنية من علاقات الانتاج في التشكيلات الاجتماعية العربية تربط القطاعين معنا وتحدد طبيعتهما وتدخل في تحديد علاقة تبعية هذه التشكيلات للمراكز الامبريالية والسوق العالمية .

وهذا بالضبط ما يغفله الجابري في تحليله ، فالذي يحدد بقاء القطاعين التقليدي والعصري وتجددهما معا هو آليات إعادة إنتاج بنية التشكيلات الاجتماعية العربية التابعة والتي تحددها مقتضيات التراكم الرأسمالي في المراكز الإمبريالية . فنحن نظل على السطح اذا ظننا ان وسم القطاع التقليدي بالتقليدي كافٍ لتحديد طبيعته الاجتماعية . فالمهم هنا هو تحديد موقعه ودوره ووظيفته في البنية الاجتماعية التابعة وعلاقاته المتشعبة معها .

والسؤال المهم الذي يغفله الجابري هنا : لماذا ظل القطاع التقليدي قائما في المجتمعات العربية ، على الرغم من ان الرأسمالية بدأت تخترق الوطن العربي منذ حوالي قرنين من الزمان ؟ لماذا لم تتمكن الرأسمالية العربية من إذابة هذا القطاع وتفكيكه ، كما جرى في أوربا الغربية واليابان مثلا ؟ وهو سؤال جوهري وأساسي لمعرفة خصوصية الرأسمالية العربية وعناصر اختلافها عن رأسمالية المراكز الإمبريالية . والمسألة بالتأكيد ليست مسألة ذاتية كما يوحي الجابري في دراسته المذكورة عن اشكالية الأصالة والمعاصرة .

إن بقاء القطاع التقليدي وتجدده ليس مرده الى أننا " نقبل هذه الازدواجية على صعيد واقعنا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتعليمي فنبني مخططاتنا التنموية على أساس تنمية هذا الواقع المزدوج ، نصرف على القطاعات العصرية من اجل تدعيمها وتوسيعها باسم التحديث ، كما نصرف على القطاعات التقليدية من اجل الإبقاء عليها واحياء المندثر منها ، بأسم الأصالة والحفاظ على التقاليد ... " ، كما يزعم الجابري .

إن المسألة ليست كذلك مطلقا ، فالجابري يتبنى هنا المواقف الرسمية في محاولاتها تبرير هذا الوضع . إنه ينطلق بزعمه ذاك من عقيدة الطبقات المسيطرة في الوطن العربي ، ويردد ما تقوله هي بصدد الوضع القائم ، لا ما تشير اليه ديناميات الواقع الموضوعي . ذلك ان قوله المذكور آنفا يوحي بأن بقاء القطاعين العصري والتقليدي جنبا الى جنب مرده الى السياسات التي تتبعها الطبقات الحاكمة في إدارة

المجتمع العربي والتي تنبع من رغبة ذاتية في دعم القطـــاعين تعكـس ازدواجية معينة في ما يسمى العقل العربي .

وبـالأحرى ، فإنه يوحي أن هناك رغبتين تتنازعـان الطبقـات الحاكمة العربية ، رغبة في الحفاظ على الأصـالة وأخـرى فـي تنميـة المعاصـرة . وهاتان الرغبتان هما في النهاية المسؤولتـان عـن بقـاء القطاعين العصري والتقـليدي وتجددهما وعن الازدواجية التي يعاني منها ما يسمى العقل العربي .

امـا (النـحن) التي لا يفتأ يرددها الجابري ، فهي تقال وكأن هذه السياسات تعكس قـرارا عربيا جماعيا ، وكأن كل عربي يشارك في اتخاذ القرار وصنع السياسات العامة ، أو كأن متخذ القرار العربـي هـو حقـا الممثل الشرعي والوحيد للإرادة العربية وتجسيد لما يسمى العقل العربـي (ألا يذكرنا ذلك بهيغل حين شاء أن يعتبر الدولة البروسية الاستبدادية فـي عصره تجسيدا لروح العالم ؟) .

إن الجـابري يبين مسألة وجود القطاعين التقليـدي والعـصري وكأنها مجرد امتداد لإشكاليـة الأصالة والمعاصرة والتي تشكل واحدة من الثنائيات الرئيسية في العقل العربـي ، مغيبا كليا مسألة العلاقة البنيويـة المـادية بين القطاعين وموقعهما في البنية التابعـة المرتبطـة بـالمراكز الامبريالية بعلاقات استغلالية .

إنـه يغفل النقطة الجوهرية في الأمر والمتمثلة في كون الرأسمالية العربية التابعة ، ملجومة بحكم تبعيتهـا ، ومن ثم مقيدة ومحـدودة فـي قدرتها على إذابة أنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية وتفكيكها ، لا بـل إنهـا

في حاجة الى اعادة انتاج هذه الأنماط على هذا الصعيد او ذاك حتى تتمكن من أداء دورها في النظام الرأسمالي العالمي . وبصفة خاصة ، فإن دورها (الكمبرادوري) يتيح المجال للرأسمال الإمبريالي العالمي أن يتحكم في نمو هذا القطاع أو ذاك وأن يحدد شروط النمو الرأسمالي فيه ، فهذه الشروط هي التي تحدد ما إذا كان قطاع ما سيتاح له أن يتطور رأسماليا أو يبقى على حالة من التخلف والجمود عند المراحل الاولى للتطور الرأسمالي . فالرأسمال الامبريالي قد يخلق شروطا تنافسية تمنع قطاعا ما من توسيع سوقه ومن ثم تحد من تطوره الرأسمالي وتقصره على سوق محلي ضيق ، في الوقت الذي تتيح فيه لقطاع آخر بالتوسع والتطور حسبما تقتضيه متطلبات تراكم رأسمال في المراكز الإمبريالية .

إن علاقات الانتاج السائدة عربيا ، التي تعكس تبعية التشكيلات الاجتماعية العربية للمراكز الامبريالية ، هي المسؤولة اذن عن بقاء القطاع التقليدي قائما جنبا الى جنب مع القطاع العصري وعن تجدده وإعادة إنتاجه بما يخدم عملية التراكم الرأسمالي في المراكز الامبريالية .

وقد بين بعض الدارسين ، أن هناك الف خيط وخيط تربط القطاع التقليدي بنيويا مع القطاع العصري والرأسمالي العالمي يتم عن طريقها لجم تطور القطاعين وشفط فائض القيمة من المجتمعات العربية الى المراكز الامبريالية الكبرى .

إننا نرفض تحليل الجابري لاشكالية الأصالة والمعاصرة ، أولا ، لانه يدعي انها اشكالية نظرية بحتة مستقلة كليا عن الصراعات الاجتماعية التاريخية . وثانيا ، لانه وإن كان يعترف بالأساس

الموضوعي لهذه الاشكالية والمتمثل في وجود القطاعين العصري والتقليدي جنبا الى جنب في المجتمعات العربية ، الا انه لا يتدبر القطاعين في وحدتهما وفي علاقاتهما المادية مع النظام الرأسمالي العالمي ، كما انه يناقض نفسه فيوحي بأنهما امتداد للاشكالية التي يفترض انهما يشكلان اساسها . تلك الاشكالية التي تشكل واحدة من الثنائيات الرئيسية في ما يسمى العقل العربي .

إن القطاعين إذن تجسيد لاشكالية الاصالة والمعاصرة أكثر منهما أساس لها . والحال أن الجابري يطرح تصورا ظاهره مادي ، لكن باطنه مثالي ، وهي أحبولة أيديولوجية رئيسية في فكر الجابري غالبا ما يلجأ اليها في ستر عورات أطروحته .

*** ماضي الحاضر وحاضر الماضي :**

لنبدأ أولا من علاقة أية أمة في الحاضر بماضيها . هل الماضي يشكل ثقلا على ظهر أية حضارة أم العكس ؟ هل ماضي الأمة وعمق هذا الماضي يؤديان الى اغناء الحاضر ؟ وهل نحن العرب نتعامل مع الماضي بأعتباره تعويضا عن الحاضر ؟

لنتخذ من هذه التساؤلات مبررا عاما لمناقشة نقطة في غاية الأهمية : انفصامية الانسان العربي أو بمعنى آخر ، حيرة هذا الانسان بين ماضيه وحاضره ، مع محاولة ان نجمع حولها بعض الظواهر الاساسية التي يعيش فيها الآن .

لنـــأخذ اوربا على سبيل المثال ، والتقدم الذي شهدته ، وكيفيـــة موازنتها بين التكنولوجيا المعاصرة وماضيها وتقاليدها فـــي كـــل أوجـــه حياتها اليومية ، علـــى الرغم من ماضيها وانجـــازاته الرائعة على مـــدى أكثر من عشرة قرون وفـــي ميادين متعددة جدا . ومع ذلك ، لا أعتقد ان الأوربـــي المعاصر يعيش في ماضيه ومعه او تجمعه بماضـــيه العلاقـــة ذاتهـــا التي تجمع الانسان العربي بماضيه .

إن هـــذه المسألة طالما أثارت نقاشا عميقا بين مثقفينا ، وعليـــه ، فـــأن هذه النقطة تعـــد أساسية ، ومنها نستطيع ان نعالج مشكلة موقفنا من الماضي ، مشكلة عدم مواجهتنا للحاضر بشكل مباشر ورغبتنا الدائمة في التهرب من هذا الحاضر ، فـــي سبيل الاجترار المستمر لأمجاد ماضيه ، حيـــث نتصور انها ستعوضنا عن قصر الحاضر وفراغه .

إن هـــذا الصراع الفكري الذي يمزق شخصية الانسان العربـــي ويصيبها بالفصام والقـــلق والاغتراب النفسي نتيجة لثنائية مصطنعة بـــين المثال والواقع ، وبيـــن حياة الانسان الروحية وحياته المادية ، الأمـــر الذي يحملنا على القول : إن الكثيرين من العرب هم حاليـــا فـــي واقـــع الأمر ، الصورة الجـــامدة السطحية للحضارة العربيـــة الاســـلامية التـــي يحيونها من الخارج لا من الداخـــل ، كمـــا انهم الصورة الباهتة الشوهاء للحضارة الغربية الحديثة التي يستهلكون قشورها دون جوهرهـــا ، انهـــم حيارى ، مبتوروا الجذور ، فـــلا هم مع جوهر التراث الماضي ولا هـــم مع روح العصر ، وليسوا بقادريـــن على استشراف آفاق المستقبل .

لــذلك نرى ، ان علاقة الانسان العربي بماضــية علاقــة غيــر طبيعية ، وهذه العلاقة تنحصــر في ان الماضي يريــد ان يحــل محــل الحاضر في ذهن الانسان العربي . وفــي رأيي ان مختلف التيارات التي تسيطر على الوطن العربي اليوم وتتحكم في توجهه ، أو بمعنــى آخــر ، بعض فئاته ولا سيما الدعوات السلفية التي ظهرت لتقتلــع كــل شــيء ، وابــرز أسباب ظهورها بهذا الشكل القوي هو فشل المشروع النهــضوي الحضاري العربي ذي السمات القومية . وهــذه الدعوات لا تريد ان تحل هــذه المشكلة حلا حقيقيا ، بــل ربما وجدت لها مصلحة أساسية في بقاء هذه العلاقة التي قــد نعتبرها علاقة مرضية بين الماضي والحاضر .

ولــكن ، ألم نجد بين تجارب الشعوب ما نجح منها في الاســتفادة من الماضي وتطويعه في سبيل التقدم ؟ أليــس من الممكن ان يكون هناك مجال للاستفادة من تلك التجارب ؟

اعتــقد ان هناك علاقة وثيقة بين الماضي والحاضر والمستقبل ولا يمكن بتر المراحل عن بعضهــا بشكل قسري . وهنــاك فارق كبير بــين من يدعو للعودة الى الماضي والتقوقع فيه وبين من يدعو الى الاستفادة من ايجابيات الماضي وإلغاء سلبياته .

فــي تصوري ، أن مسألة الموقف من الماضي تحكمها أو تحسمها قضية التطور الاقتصادي والاجتماعي التي يمر بها المجتمع ، لانــه كلما كان المجتمع متخلفا كان حنينه الى الماضي كبيــرا ولا ســيما إذا كــان طريق التطور أمامه غير واضح المعالم .

امـــا اذا اندفع المجتمع على طريق التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، فأعتقد ان علاقة الانسان بماضيه وحضارته القديمة تصبـــح علاقة حميمية وجدلية . بمعنى انه يعتبر بهذا الماضي دون ان يجعلـــه متحكمـــا فـــــي حاضره وفي مسار مستقبله ، فيـــأخذ من هذا الماضي ما يفيـــد الحاضـــر وربما ما يفيد المستقبل .

فمـــما لاشك فيه ، ان الماضي يصبح عبئا ثقيلا على الشعوب اذا لـــم تعرف كيف تدمجـــه دمجا وثيقا بالحاضر والمستقبل ، وإذا لم تحسن تجديده لتبقيه حيا متحركا يملك الديناميكية اللازمة للتفاعل مـــع العـــصر والتفاعل مع المستقبـــل . لكن لابد من الاجابة علـــى الـــسؤال التـــالي : لماذا هـــذا الحنين الخاص الذي يكنّه العرب لماضيهم ؟

لابـــد ان نذكر ، بأن العودة الى الماضي في مرحلة من مراحـــل حياتنا العربية اضطلعت بـــدور الحفاظ على الذات العربية وعلى الهوية ، ولاسيمـــا في مرحلة الاستعمار حيث مثلت بسببه عـــاملا متمـــثلا فـــــي الحفاظ على الذات والحفاظ على الهوية وعدم الذوبان في ثقافات الآخرين وفي ثقافة المستعمر بوجه خاص .

كـــان هذا التصرف حذرا مفروضا على العرب في مرحلة مـــا . غيـــر ان هذه الظروف زالـــت واصبح العربي يواجه ظروفـــا جديـــدة ، لكننـــا ما نزال الى حد ما في الموقـــف نفـــسه فيمـــا يتـــصل بارتباطنـــا بـــالماضي والحنين اليه .

صحـــيح ان الصيغ تغيرت ولكن هنالك غزوا ثقافيا وبالتالي هنالك حاجة الى تأكيد هويـــة ثقافية لانها هي المحافظة في النهاية على كرامـــة

الشعوب وذاتيتها ، وهي التي تحول بينها وبين الذوبان ، ولاسيما اننا امام تقدم علمي وتقني يغزونا شئنا ام ابينا ، وهذا التقدم يحمل قيما هي قيم المجتمع الذي انتجها .

والتقدم العلمي والتقني ليس حياديا ، اذن لابد من هويتنا الذاتية ، وموضوع الهوية ما يزال مفتوحا ، ولكن ينبغي ان يطرح بعبارات جديدة تتلخص في نظري في النقطة الآتية :

لا يعني تأكيد الهوية العودة حرفيا الى شكل من اشكال الماضي وتفاصيله ولاسيما ان الماضي ممتد وواسع وهو مجموعة من المواضي وليس ماضيا واحدا . ولكننا بحاجة الى صيغة جديدة . ومعنى ذلك ، ان الحل لا يكمن في الرجوع الى أي شكل حرفي من اشكال الماضي ، وان كان يكمن في ان نستمد كثيرا من القيم والمبادىء والتجارب والخبرات التي علمنا اياها هذا الماضي ، وان ندرسها ونحللها . والحل يكمن في ان ندرك حقيقة اساسية ، وهي ان الثقافة او الهوية الثقافية تتحقق عندما نبني ثقافتنا ــ واقصد الثقافة في المعنى الواسع للكلمة ــ بذاتها وبأيدينا .

هذه هي الثقافة الذاتية التي تحقق الهوية ، والثقافة التي تحقق الهوية ليست مجرد ثقافة تعود الى شكل من اشكال الماضي . الثقافة الذاتية التي تحقق هويتنا هي تلك التي نبنيها بناءً جديدا من عناصر جديدة ، ولابد ان تكون مركبا جديدا فيه من الماضي وفيه من الحاضر والمستقبل ومن تجربة العصر . وهذه الصيغة التي نتبناها مشروعا لمستقبلنا ولحضارتنا ، هي هويتنا في نهاية الامر .

اعتقـــد ان مسألة الهوية مشكلة زائفة استدرجنا اليها احتجاجنا ضد الغرب لانها لا تعني سوى الوجود في مقابل الأخر ، فكان الاســـاس هـــو الأخر ، وكيف اثبت نفسي إزاءه . والواقع اننا لسنا في حاجة الى اثبـــات هويتنا أولا لاننا نحملها دائما .

إذن ، لابـــد ان تحدث ثورة ، وهذه الثورة مرتبطة بالتفكير ، وهذا يقودنا الى نمط التفكيـــر العلمي ودور المثقـــف فيـــه وبالتـــالي التبعيـــة المضروبة حول المثقف ونوعية العلم وما تقدمه مؤسساته الاساسية .

إن الإنـــسان كما هو معروف ، هو المركـــز الأساســـي للتغييـــر الاجتماعي ، ومـــركز التغيير في الانسان هو المعرفة ، وهـــذه مرتبطـــة بالمعلومة وبالثورة العلمية ، وبالتالي بمؤسسات الاعلام . وهـــذه الى حد كبير ـــ فـــي الوضع العربي الراهن ـــ تدخل فـــي اطار التبعية ، بحيث لا تخرج عن الاطـــار المضروب حولها . وهـــذا يقودنا الى مـــا يـــدور حول التفكير الميتافيزيقي بالماضي والسلفية وغيره ، وبالتالي الاســـتمرار في اطار التبعية .

وإذا أردنـــا خلق تفكير علمي وكسر حاجز الصراعات والتناقضات والتعقيدات ... فإنني اعتقـــد إننا نصطدم لا محالة مع الـــسلطة . وهـــذا يقودنا الى السؤال : ما نـــوع العلاقة بين الثقافة والسلطة ؟ وإذا ســـــرنا في اتجاه هذا التفكير نستطيع الاجابة عن السؤال : الى أي مـــدى يمكننـــا الاستفادة من تاريخنا ؟

ان المعرفة هي الاستفادة من تجارب التاريخ ، وهذا يقودنا الى قضية اساسية مرتبطة بالفكر العلمي والاعلام، هي قضية الديمقراطية بممارستها.

ان الثقافة بمعناها الواسع هي انماط السلوك المادي والمعنوي السائد في مجتمع من المجتمعات . وهي اهم محرك لحياة المجتمع واهم عامل من عوامل تقدمه ، وهي واحدة من مقومات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . لذلك ، ينبغي ان نعتني بالثقافة بهذا المعنى . ولعل هذا اجدى بكثير من ان نتحدث عن الماضي وان نعتني بدراسة هذه القيم الثقافية ومغالبة ما يحتاج الى فعالية ، وعلى التأكيد على ما يحتاج الى تأكيد .

واضح من مجمل ما طرح ، اننا في اوقات الأزمة السياسية والاقتصادية العاصفة وفي ظل التبعية للعالم الغربي المتقدم اقتصاديا وتكنولوجيا ، نجد في العودة الى الماضي نوعا من الراحة النفسية ونوعا من محاولة اغلاق الاذن عما يدور والبحث عن نوع من التطمين الذاتي الخادع للنفس ، ولكن هذا الخداع لا ينكشف الا بعد تضحيات جسيمة .

والسؤال المطروح الآن هو : هل العلاقة بين الماضي والحاضر علاقة توفيقية ؟ هل يمكننا ان نأخذ قليلا من الماضي وقليلا من الحاضر ونمزجهما بنوع من التوليفية في محاولة للخروج من المأزق الحالي ؟ ام هل سيظل الماضي يسحبنا في اتجاهات الرجعية السلبية ؟

والسؤال ليس جديدا ، فقد طُرح في القرنين الثالث والرابع الهجريين بشكل واضح جدا ، وامامنا تجربة المعتزلة ماثلة . فالقضية المطروحة ليست بالجديدة ، وتاريخنا مليء بمناقشات مشابهة .

*** مـــراجع اخرى اعتمدناها للتوكيد والاستقراء لما ورد في الدراسة :**

١. احمـــد ثابت ــ الانطلاق بالتراث الى المستقبل العربـــي عنـــد عابـــد الجابري ، مجلة اليقظة العربية (القـــاهرة) ، العدد ٤ (يونيه /١٩٨٥) .

٢. محمـــد عابـــد الجابري

ــ إشكـــاليات الفكر العربي المعاصر ، ط٤ ، مركز دراسات الوحـــدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

ــ المشروع النهضوي العربي ، مراجعة نقدية ، ط١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٦.

ــ قضـــايا في الفكر المعاصر ، ط١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٧.

ــ التـــراث والحداثة ، دراسات ومناقشات ، ط٢ ، مركـــز دراســـات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩.

٣. هشام غصيب ــ صراع حضارات ام صراع طبقات ، جريدة الـــرأي (الاردن) ، العدد والتاريخ (؟) .